

## خطوات في الطريق إلى الله

نتابع حديثنا عن الاتضاع. ونركز في نقطة واحدة تتعلق بالاتضاع، وهي عدم الدفاع عن النفس. متى يكون الدفاع عن النفس ضد الاتضاع؟ وما هي الخطايا التي يقود إليها؟

## الدفاع عن النفس<sup>1</sup>

**الإنسان المتضلع لا يدافع عن النفس، بل هو يدين نفسه باستمرار، وسهل عليه أن يقول إنه مخطئ...**

أما المتكبر، فهو على الدوام يبرر نفسه. إنه بار في عيني نفسه، ويريد أن يكون باراً في أعين الآخرين...

الإنسان المتواضع يقف أمام الله كمريض يحتاج إلى علاج، لذلك يعرض ضعفاته على الله، ليمنحه قوة على علاجها. ويطلب من الناس صلوات تضاف إلى صلواته، ليرحمه الله... أما المتكبر فهو من الأصحاء الذين لا يحتاجون إلى طبيب! (مت 9: 12).

### المتواضع يدافع عنه الله أما هو فلا يدافع عن نفسه...

هو لا يبرر نفسه، بل الله هو الذي يبرره. كما حدث بالنسبة إلى يوسف الصديق. بيع من إخوهه كعبد، فلم يدافع عن نفسه... واتهمنته زوجة سيده زوراً، فلم يدافع عن نفسه، وأُلقي في السجن، إلى أن دافع الله عنه...

**والقديس أبا مقار الكبير، أُتّهم في خطية مماثلة، فلم يدافع عن نفسه، وكان يكذّب في عمل يديه، ويقول لنفسه: "كذّ يا مقارة، فقد صارت لك امرأة**

---

<sup>1</sup> مقال لقادسية البابا شنوده الثالث - بمجلة الكرازة - السنة التاسعة - العدد الخامس والعشرون 23-6-1978م

وبنون". وظل هكذا، إلى أن أظهر الرَّب براءته. تعثرت ولادة المرأة، فاعترفت بأنها ظلمته.

**وكما أن آبا مقار ويوسف الصديق لم يُدافعا عن نفسيهما، كذلك القديسة مارينا التي احتملت عار الخطية ظلماً. ولم تُكتشف براءتها إلا بموتها، فظهر أنها فتاة وليس رجلاً!**

أما الدفاع عن النفس وتبرير الذات فهو خطية قديمة جدًا.

**بدأت هذه الخطية منذ حواء وآدم. وكل منهما حاول تبرير ذاته، ورفض أن يعترف ويقول: "أخطأت".**

أما نحن فورثنا الخطية، بل ورثها قايين، أول ابن لآدم.

واستمرت هذه الخطية في طبع البشرية، وارتبطة بخطايا أخرى كثيرة، فلا توجد خطية عاقر. كل خطية لها أولاد.

**أول خطية ترتبط بالدفاع عن النفس هي الكبرياء...**

فالإنسان يدافع عن نفسه، ليبدو بارًا، بدافع الكبرياء. أما المتواضع، فلا يهمه أن يأخذ عنه الناس فكرة حسنة لذلك لا يدافع عن نفسه. بل قد يتهم نفسه أمام الناس...

**من الخطايا الأخرى التي ترتبط بالدفاع عن النفس، الكذب.**

**الكذب غطاء يغطي الخطية.** وإن انكشف قد يُغطى بكذبة أخرى. وما أكثر قصص الكتاب التي توضح هذا الأمر.

**في قصة سوسنة العفيفة**، ارتبط الدفاع عن النفس بالكذب. وأخوة يوسف عندما باعوه، غطوا الخطية بكذبة، فقالوا: إن وحشًا ردينًا افترسه ولطخوا قميصه بالدم كدليل (تك 37:33)!

انظر إلى نفسك، في كل مرة تدافع فيها عن نفسك، كم كذبة وقعت فيها. كمن يدعي المرض، لكي يدافع عن نفسه في غيابه، ويشرك معه في الكذب طيبًا!

## من الأخطاء الأخرى المرتبطة بالدفاع... إلقاء الذنب على الآخرين.

فلكي تثبت براءتك، تلقى تبعة الخطأ على غيرك!  
هكذا فعل آدم، حينما برر نفسه بإلقاء التبعة على حواء.  
وهكذا فعلت حواء حينما بترت نفسها بإلقاء التبعة على الحية.  
بل إن آدم حاول أن يلقي التبعة على الله نفسه "المَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي  
هِيَ أَغْطَثْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ" (تك 3:12).  
**وهذا يرينا مدى ارتباط هذه الخطية، بالتجديف على الله.**

إنسان يقع في إشكال، ربما بسبب إهماله. طالب يرسب، ربما لعدم مذاكرته. شخص يقبض عليه، ربما بسبب أخطائه. في كل ذلك أو غيره، ما أسهل أن يتذمر على الله، ويتهمنه بأنه يضطهد، أو بأنه قد تركه، أو بأنه السبب!

## وقد يدافع الإنسان عن نفسه، بالتبجح...

ومن أمثلة هذا الأمر قايين، الذي قتل أخيه. ولما سأله الله: "أَيْنَ هَابِيلُ أَخْوَكَ؟" أجاب في تبجحٍ ليدافع عن نفسه: "أَخَارِسُ أَنَا لَأَخِي؟!" (تك 4:9). والبعض قد يقع في التبجح، بأن يهاجم كوسيلة للدفاع، كالمثل العامي الذي يقول: "خده قبل ما ياخذك"...

**ومن أمثلة الذين وقعوا فيما يشبه التجديف، في دفاعهم عن أنفسهم. أیوب الصديق..**

إنه في تبريره عن ذاته، يقول لله: "أَحَسَنْ عِنْدَكَ أَنْ تَظْلِمَ؟!" (أي 10:3): "تَسْتَذَنِبِنِي لِكَيْ تَتَبَرَّ أَنْتَ؟" (أي 40:8)، "أَغْلِفْنِي ذَنِبِي وَخَطِيئَتِي؟" (أي 13)، "فِي عِلْمِكَ أَنِّي لَسْتُ مُذْنِبًا، وَلَا مُنْقَذٌ مِنْ يَدِكَ!" (أي 10:7). وقال لأصحابه: "فَاغْلَمُوا إِذَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّجَنِي، وَلَفَ عَلَيَّ أُخْبُولَتُهُ" (أي 19:6). **إنَّ الدِّفاعَ عن النَّفْسِ قد يرتبط أَيْضًا بالغُصُبِ والثُّورَةِ، وبِإِهَانَةِ الآخِرِينَ.** وربما يؤدي أيضًا إلى الشُّتِيمَةِ والانتقام.

**أيوب الصديق** في دفاعه عن نفسه ضد أصحابه الثلاثة، قال لهم: "مَعْزُونٌ مُتَعْبُونَ كُلُّكُمْ؛ هَلْ مِنْ نِهَايَةٍ لِكَلَامِ فَارِغٍ؟!" (أي 16: 3-2)، "لَيَتَكُفِّمْ تَضْمُتُونَ صَفْتًا. يَكُونُ ذَلِكَ لَكُمْ حِكْمَةً" (أي 13: 5) "أَمَّا أَنْتُمْ فَمُلْفَقُو كَذِبٍ. أَطِبَّاءُ بَطَالُونَ كُلُّكُمْ" (أي 13: 4).

**بطرس الرسول**، في دفاعه، أخرج سيفه من غمده وقطع أذن العبد، فأراه السيد المسيح أن هذه الطريقة لا تناسبنا في الدفاع عن أنفسنا. وقال له: "رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ" (مت 26: 52).

### **والبعض في الدفاع عن نفسه، يقع في المقاومة والجدل...**

يُكثر الكلام بطريقة متعبة، وفي مناقشة غبية، يتضح فيها عنصر المغالطة، لمجرد الدفاع.

**وفي كل ذلك يكون المدافع عن نفسه سبب عثرة للآخرين.**

وذلك عن كثرة ما يقع فيه من أخطاء تُعثر الناس.

بينما الشخص الذي لا يدافع عن نفسه، وقد يقبل الخطأ على نفسه في هدوع، يكون قدوة للآخرين، وينتفعون كثيراً من اتضاعه ومن هدوئه ومن سلامه الداخلي. **على أن من أخطر الأمور في الدفاع عن النفس محاولة فلسفة الخطأ، بقلب القيم، وتغيير موازين الأمور.**

وهكذا يحاول المخطئ أن يلبس الباطل ثوب الحق، لكي ينجو من مسؤولية الباطل الذي وقع فيه، مدعياً أنه حق!

ومن هنا نشأت كثير من المذاهب الفلسفية والعقلية والاجتماعية والتربيوية، بسبب محاولة فلسفة الأخطاء وبريرها عقلياً.

إنسان يقسّو على أولاده، فيُلبس القسوة ثوب الحزم، ويستخدم بدون فهم العبارة التي تقول: "أَدْبَابُكَ بِقَضَيْبٍ مِنْ حَدِيدٍ"، وهكذا لا يرد على خطئه فقط، إنما يؤسس مبدأ في معاملة الأبناء. وقد يضرب امرأته، فإن عاتبته، يضع مبدأ آخر في حق الرجل في ضرب امرأته. ويصير الخطأ فلسفة. الذي يكنز أمواله بلا مبرر، والبخيل الذي لا ينفق على الضروريات.

كل منهما يبرر موقفه بفلسفة في الاقتصاد، ويتهمن الذي ينفق بالإسراف وتبديد الأموال وقلة العقل!!

### **وبهذا الأسلوب في الدفاع وقع المهاطقة في البدع.**

لو أن أحدهم اعترف أنه أخطأ، ما قامت هرطقته، ولainتهي الأمر. ولكن إصراره على تبرير ذاته والدفاع عن نفسه، جعله يبحث عن أدلة عقلية أو منطقية يثبت بها رأيه وأنه لم يخطئ. وهكذا يبدأ الهرطوفي يفسر أخطاءه... وقد يستخدم نصوصاً وآيات من الكتاب في غير ما قصد منها، ويوضع للناس مفاهيم جديدة خاطئة سببها الدفاع عن النفس!

### **ما أظلم الناس في استشهادهم بالآيات وبالنصوص!!**

كل مذهب من المذاهب، مهما كان خطأه واضحًا، يحاول أن يثبت خطأه بالآيات وبالنصوص. ومن يعارضونه يستخدمون أيضًا الآيات والنصوص. ويضيع الحق في التفسير الخاطئ للنصوص... .

**إن الدفاع عن النفس، يجر إلى أخطاء وأخطار كثيرة كما رأينا. ولعل أبشعه الدفاع عن النفس أمام الله... .**

بينما أمام الله ينبغي أن "يَسْتَدِّ كُلُّ فَمٍ" (رو3:19). ولا يقول الإنسان سوى كلمة "أخطأت، سامحني، وارحمني".

### **الاعتراف بالخطية.**

❖ **إن الاعتراف بالخطيئة يجلب العفو، ومحاولة تبرير الذات تجلب الديوننة، سواء أمام الله أو أمام الناس.**

❖ إن اعتذرت لأحد، تنتهي المشكلة بينك وبينه، لأنك في الاعتذار لا تبرر ذاتك. أما إن ظللت تجادل، يتضاد الموقف، وتزيد المشكلة، وتكون كمن يصر على الخطأ. وكثير من الإشكالات الزوجية والعائلية، سببها إصرار كل طرف على أنه لم يخطئ، وأن الخطأ في الطرف الآخر!

❖ إن كلمة (أخطأت) لها معنوي عميق في إذابة المشاكل.

**ولكن هناك موقفًا يصلح فيه الدفاع... .**

إن كان شخص ثائراً عليك ظاناً أنك أهنته أو خنته. وإن اعترفت بذلك تزداد ثورته، وربما تنقطع علاقتكم، وتسوء العواقب. بينما إن شرحت له حقيقة الأمر، وأنك لم تُنهنه ولم تخنه، تهدأ نفسه، ويسود السلام بينكم.

**حينئذ لا يكون سبب الدفاع عن النفس هو تبرير الذات، وإنما هو ربح الآخرين. وإرضاؤهم وتبنيت المحبة.**

ولا يكون هذا دفاعاً، وإنما هو توضيح لموقف. وهذا التوضيح هو والاعتذار، لهما نتيجة واحدة...

**يا إخوتي، إن الدفاع عن النفس أمر سهل يقدر عليه الكل. أما عدم الدفاع عن النفس فهو شيء الأقواء.**

المسيح القوي "ظِلِّمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ" (إش 53:7).

لم يدافع عن نفسه أمام مجلس السنهدريم، ولم يدافع عن نفسه أمام بيلاطس. وبصمته كسب الموقف. وأعطانا تعليماً عن الخد الآخر، وعن الميل الثاني...